ســــــورة الدخان
دراسة في علم المناسبة

الشيخ /رفاعي سرور

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبعد ....

لكي نصل إلى الموضوع الأساسي الذي تدور حوله أي سورة – وفي حالتنا هذه سورة الدخان – يجب أن ننطلق من منطلقين:

- المنطلق الأول: النصوص الواردة عن رسول الله ﷺ حول السورة، وهي التي تمثل الأساس في تفسيرها، وتكشف أقوى دلائل المناسبة بين آيات السورة كلها، ومن هذا المنطلق نتناول تلك النصوص لنتلمس فيها معالم ذلك الموضوع، وهناك أمثلة كثيرة على هذه الحقيقة المنهجية في علم المناسبة [1].

---

(1) هناك أمثلة كثيرة على هذه الحقيقة المنهجية في علم المناسبة، ومنها سورة الكهف، حيث أورد الإمام القرطبي في مقدمة تفسيرها: " في صحيح مسلم عن أبى الدرداء أن نبيّ الله ﷺ قال: " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال ". وفى رواية " من آخر الكهف". وفي مسلم أيضا من حديث النواس بن سمعان " فمن أدركه – يعنى الدجال – فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ". وذكره الثعلبي. قال: سمرة بن جندب قال النبي ﷺ: " من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظا لم تضره فتنة الدجال ". تفسير القرطبي – (ج 10 / ص 346)

وحيث أورد ابن كثير في مقدمتها: عن أبي أُمَامة الباهلي قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فكان أكثرُ خطبته حديثًا حدثناه عن الدجال، وحذرناه، فكان من قوله أن قال: وإن من فتنته (يعني الدجال) أن معه جنة ونارا، فناره جنة وجنته نار. فمن ابتلي بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف، فتكون عليه بردًا وسلاما، كما كانت النار (8) على إبراهيم [عليه السلام] المسند (216/4) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (51/9) عن تفسير ابن كثير – (ج 2 / ص 459)

وفتنة الدجال هي أكبر فتنة في مقام الألوهية، مثل ادعاء الولد، لذلك كانت مواجهتها هي أول خطوط المواجهة مع الدجال، فنجد أن سورة الكهف قد بدأت بإنذار أصحاب ادعاء الولد لله: {وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا} [4]..

- المنطلق الثاني: المعنى اللغوي لاسم السورة، حيث سنجد جميع اشتقاقاته ومعانيه تدور حول نفس الموضوع.

وإذا تناولنا سورة الدخان من خلال هذين المنطلقين، وجدنا أن تقدير الله عز وجل –وبصفة أساسية– من خلال قضية الدجال.. هو موضوع السورة:

– فأوَّلُ نصٍّ ورد عن رسول الله ﷺ في سورة الدخان، هو ما أورده ابن كثير في مقدمة تفسيرها: عن زيد بن حارثة؛ أن رسول الله ﷺ قال لابن صَـيَّاد: « إني قد خبأت خبأ فما هو؟، وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدُّخ. فقال: اخسأ ما شاء الله كان». ثم انصرف.

– وكذلك حديث لقاء رسول الله مع ابن صياد:

– عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط من أصحابه قِبَلَ ابن صياد حتى وجدوه يلعب مع الصبيان في أطم بني مغالة، وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده ثم قال: «أتشهد أني رسول الله؟ فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين. فقال ابن صياد لرسول الله: أتشهد أني رسول الله؟ فَرَضَّه النبي ﷺ ثم قال: آمنت بالله وبرسله، ثم قال لابن صياد: ماذا ترى؟ قال: يأتيني صادق وكاذب. فقال رسول الله ﷺ: خلط عليك الأمر. ثم قال له رسول الله ﷺ: إني قد خبأت لك خبيئا، فقال ابن صياد: هو الدخ، فقال له رسول الله ﷺ: اخسأ فلن تعدو قدرك، فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال له رسول الله ﷺ: إن يكنه فلن تسلط عليه وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله»(1).

– قال سالم: سمعت ابن عمر يقول: «انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ وأُبَيّ بن كعب إلى النخل التي فيها ابن صياد، حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل طفق يتقي بجذوع

وانتهت بإثبات بشرية الرسول والفصل بين مقام النبوة والألوهية: {قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} [110].

ليتحقق الفرقان بين النبوة ومقام الألوهية، وهو أول حقائق حفظ المقام الإلهي العظيم الكبير..

(1) متفق عليه.

النخل وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد، فرآه رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراش في قطيفةٍ له فيها زمزمة، فرأت أم ابن صيادٍ رسول الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل فقالت لابن صياد: يا صاف ! – وهو اسم ابن صياد – هذا محمد ! فثار ابن صياد، فقال رسول الله ﷺ: لو تركته بَيَّن، قال سالم قال عبد الله بن عمر: فقام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو له أهلٌ ثم ذكر الدجال فقال: إني لأنذركموه، ما من نبي إلا قد أنذره قومه، لقد أنذره نوحٌ قومه، ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبيٌّ لقومه: تعلموا أنه أعور وأن الله تبارك وتعالى ليس بأعور»[1].

ومن قول رسول الله ﷺ: «اخسأ ما شاء الله كان» يتبين أن رسول الله ﷺ تعامل مع ابن صياد باحتمال أنه الدجال، وأن ما خبأه رسول الله ﷺ لابن صياد كان باعتبار هذا الاحتمال.

والملاحظة الهامة أن الخبيئة التي خبأها رسول الله لابن صياد كانت آية: ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ**﴾ [الدخان: 10] [2] –وهي الآية التي وردت فيها تسمية سورة الدخان– وهكذا نجد أن هذه الخبيئة –الآية وليس مجرد كلمة الدخان– قد أصبحت أساساً في تفسير السورة..

وأن نص هذا الحديث يحمل مضمونها العام ومعناها الجوهري..

وأن سورة الدخان هي الإحاطة الكاملة للدجال من بدايتها حتى نهايتها..

أما اختصاص عمر وأُبَيّ ابن كعب بالذهاب مع رسول الله ﷺ فهو: أن الشيطان يخاف من عمر، وأن الشياطين هم أتباع الدجال، أما أُبَيّ فستحدد علاقته بالدجال من خلال تفسير السورة.

---

(2) متفق عليه.

(1) كما جاء في رواية أبي داود (ج 12 / ص 466) قول النبي ﷺ لابن صياد: « إِنِّى قَدْ خَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئَةً ». وَخَبَأَ لَهُ (يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ هُوَ الدُّخُّ.

- وإذا قمنا بتحليل المعنى اللغوي لكلمة "الدخان" وعلاقته بالدجال، من خلال ما جاء في لسان العرب، وجدنا المعاني الآتية:

– دخان: جدب.

– الدخان: الجوع ليبس الأرض من الجدب وارتفاع الغبار، فشبه غبرتها بالدخان حتى قيل لسنة المجاعة: (سنة غبراء).

– الدخان: الشر، وضعت العرب الدخان موضع الشر إذا علا، يقولون: كان بيننا أمر ارتفع له دخان.

– الدخن: رجل دخن متغير الدين والعقل والحسب.

– دخن الخلق: ساء وفسد وخبث.

– الدخن: الغم، ليلة دخنانة: أي شديدة الغم.

– الدخن: الفتنة كما في الحديث " ستكون فتنة دخنها من تحت قدم رجل..."

– الدخن: هدنة على دخن شبهها بدخان الحطب لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر.

ومن تحليل كلمة الدخان ومشتقاتها يتبين التوافق بين الكلمة والدجال:

فمن حيث أن فتنة الدجال هي فتنة الجوع: كان الدخان: هوالجدب، والجوع.

ومن حيث أن فتنة الدجال هي فتنة الشر: كان الدخان: هو الشر الذي يعلو، والسواد، والغيم.

ومن حيث الخُلُق: كان الدخان هو السوء والفساد والخبث.

ومن حيث أن الدجال فتنة عن الدين: كان الدخان هو الفتنة، وكان الدخن هو تغير الدين والعقل والحسب.

ومن حيث أن الدجال علامة خداعية: كان الدخن هو الخداع؛ لما في حديث "هدنة على دخن" [1]، وصفت بذلك لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصلاح الظاهر، يعني الخداع.

ومن معنى الخداع يتبين أن العلاقة بين الدخان والدجال لها تفسير تبادلي ، فكما ارتبط معنى الدجال بالدخان من خلال معنى الخداع جاء تفسير الدجل بنفس المعنى، لأن الدجل هو الخداع.

قال ابن خالويه: ليس أحد فسر الدجال أحسن من تفسير أبي عمرو قال: الدجال المموه، وجمعه دجالون، كما قال النبي ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ» أي كذابون مُمَوِّهون.

قال أبو العباس: سمي دجالا لتمويهه علي الناس وتلبيسه وتزيينه الباطل.

وكما كان التمويه هو المعنى الأساسي لكلمة الدجل، كان التمويه هو الصفة الأساسية لأعمال الدجال، وأخطرها أن يكون معه جنة ونارا، فناره جنة وجنته نار.

ومن مجموع هذه المعاني نكتشف أن دلالة "الدخان" على طبيعة الدجال شاملة محكمة، وأن تفسير كلمة: (دخان) هو تفسير علامة الدجال من بـــدايتها إلى نهايتها..

﴿**حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ [الدخان: 1-2]

الكتاب المبين هو المواجهة الكاملة والحرز التام والعصمة النهائية من الدجال..

ومن هنا تبدأ أول مناسبة بين اختصاص "أُبَيّ" بالذهاب مع رسول الله إلى ابن صياد باعتباره الدجال، حيث أن "أُبَيّ" كان من كتاب الوحي.

---

(1) عند أحمد (403/5). وأبو داود (59/2). والبغوي (9/15)، من حديث حذيفة واصلة في الصحيحين ولفظ أبي داود قلت: يا رسول الله ما الهدنة على دخن ؟ قال: " لا ترجع قلوب أقوام إلى ما كانت عليه "، وعند البخاري ومسلم: وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال: " نعم وفيه دخن " قال: وما دخنه ؟ قال: " قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر "... الحديث.

وصفة (المبين) التي بها تكون الإبانة والوضوح والشهادة، ليكون الحسم واليقين والاستقامة في قضايا الغيب، وخصوصا قضية الدجال التي تتسم بالغموض في كل جوانبها:

- فلا تحسم قضية ابن صياد هل هو الدجال أم لا: حيث يقول رسول الله ﷺ لعمر: (إن يكن هو فلن تسلط عليه)، ويعبر أبو ذر الغفاري عن مدى الحيرة في أمر ابن صياد والدجال بقوله: " لأَنْ أَحْلِفَ عَشْرًا ، أَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَّالُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ وَاحِدَةً ، إِنَّهُ لَيْسَ بِهِ " !
- ولا يحسم مكان وجوده على الأرض: وذلك أن رسول الله ﷺ قال: « ألا أخبركم بأنه في بحر الشام ؟ » ثم أغمي عليه ساعة، ثم سري عنه، ثم قال: « بل هو في بحر اليمن »، ثم أغمي عليه ساعة، ثم سري عنه، فقال: « هو في بحر العراق » ثلاثا..
- وكذلك موضع خروجه: حيث يقول النبي ﷺ: « يخرج الدجال من ها هنا، أو ها هنا، أو من هاهنا بل يخرج هاهنا » يعني المشرق [1].

ومن هذه الأحاديث تكون مناسبة وصف القرآن بأنه كتاب مبين..

وهكذا يأتي ذكر ليلة القدر والدجال في سياق واحد في هذا الحديث، لتتأكد مناسبة السورة مع قضية الدجال، من خلال قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾ [الدخان: 3]، ومن خلال كلمة (اخسأ ما شاء الله كان) الواردة في الحديث، ليتأكد القول أن تقدير الله عز وجل وبصفة أساسية من خلال قضية الدجال، هو موضوع السورة، وليدل على أن أساس التعامل مع فتنة الدجال هو التسليم التام بقدر الله عز وجل.

ومن هنا تعددت الروايات التي تناقش هذه العلاقة:

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (ج 20 / ص 13 – 8755) من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

– عَنْ أَبي ذَرٍّ أن رَسُولُ اللهِ ﷺ قَال لابْنِ صَيَّادٍ: « إِنِّي قَدْ خَبَّأْت لَكَ خَبِيئًا، فَقَالَ: خَبَّأْت لِي عَظْمَ شَاةٍ عَفْرَاءَ ، وَأَرَادَ أَنْ يَقُولَ : وَ{الدُّخَانَ} ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اخْسَأْ فَإِنَّك لَنْ تَسْبِقَ الْقَدَرَ » [1].

– قال رسول الله ﷺ: « إن لكل أمة مجوساً، وإن مجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، فمن مرض منهم فلا تعودوه، ومن مات منهم فلا تشهدوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله عز وجل أن يلحقهم به »[2].

قال الإمام ابن الأثير في "النهاية في غريب الأثر": "{ مجس } فيه [القَدَريَّة مَجوسُ هذه الأُمَّة] قيل: إنما جَعلَهم مَجُوساً لِمُضاهاة مَذْهَبهم مذهبَ المَجوس في قولهم بالأصْلَين وهما النور والظُّلْمة، يَزْعُمون أنَّ الخير من فِعْل النور، والشرَّ من فعِل الظُّلْمة. وكذا القَدَرِية يُضِيفون الخير إلى اللّه، والشرَّ إلى الإنسان والشيطانِ. واللّه تعالى خالِقُهما معاً، ولا يكون شيءٌ منهما إلاَّ بمَشِيئتِه، فهما مضافان إليه خَلْقاً وإيجاداً، وإلى الفاعِلين لهما عَمَلاً واكْتِساباً".

ـ ومن العلاقة بين القَدَر والدجال كانت المناسبة بينه وبين ليلة القدْر، حيث جمع رسول الله ﷺ بينهما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (خرجت إليكم وقد تبينت ليلة القدر ومسيح الضلالة، فكان يلوح بين رجلين بسدة المسجد فأتيتهما لأحجز بينهما فأنسيتهما، وأما ليلة القدر فالتمسوها في العشر الأواخر وتراً، وأما مسيح الضلالة فإنه أعور العين، أجلى الجبهة، عريض النحر، فيه دفا، كأنه قطن بن عبد العزى) قال: يا رسول الله ! هل يضرني شبهه ؟ قال: (لا ! أنت امرؤ مسلم وهو رجل كافر).

ويكون تعبير رسول الله ﷺ في حديثه عن ليلة القدر والدجال مناسبا لمعنى التبيين، حيث قال: (وقد تبينت ليلة القدر ومسيح الضلالة).

---

(1) الحديث السابق.

(2) أخرجه أبو داود، والبيهقي في السنن الكبرى (ج 10 / ص 203).

وقد أكد النبي ﷺ علة نسيانه بيان ليلة القدر و الدجال بسبب الملاحاة بين رجلين، ذلك لأن الملاحاة من جنس الحال الذي سيكون عليه الناس عند ظهور الدجال، كما أكدته عدة روايات:

- روى الإمام ابن حجر في فتح الباري: "وعند الحاكم من طريق قتادة عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد رفعه: أنه يخرج -يعني الدجال- في نَقْصٍ من الدنيا، وخفة من الدين وسُوءِ ذَاتِ بَيْن" [1].

- عن أبي هريرة قال: أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ الصادق المصدوق ؟ حدثنا رسول الله أبو القاسم الصادق المصدوق: « إن الأعور الدجال مسيح الضلالة يخرج من قبل المشرق، في زمان اختلاف من الناس وفرقة، فيبلغ ما شاء الله من الأرض في أربعين يوما.. الله أعلم ما مقدارها، الله أعلم ما مقدارها - مرتين -، ويُنزِلُ الله عيسى ابن مريم فيؤمهم، فإذا رفع رأسه من الركعة قال: سمع الله لمن حمده.. قتل الله الدجال وأظهر المؤمنين » [2].

قال أبو حاتم رضي الله عنه: "في هذا الخبر (فيؤمهم) أراد به فيأمرهم بالإمامة، إذ العرب تنسب الفعل إلى الأمر كما تنسبه إلى الفاعل كما ذكرنا في غير موضع من كتبنا".

- عن الحسين بن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما خبأ لابن صائد دخاناً سأله عما خبأ له فقال: دخ فقال: « اخسأ فلن تعدو أجلك »، فلما ولى رسول الله ﷺ قال القوم: ماذا قال ؟ قال بعضهم: دخ، وقال بعضهم: بل زخ، فقال رسول الله ﷺ: « هذا وأنتم معي تختلفون.. فأنتم بعدي أشد اختلافا » [3].

وجاء ذكر ليلة القدر بهذه الصفة: "الليلة المباركة"، ليمثل المعنى الأول للتقابل مع الدجال، لأن البركة تمام الخير والنعم، والدجال شر وجدب، وفقر وجوع، وخوف ورعب..

---

(1) فتح الباري جزء 13 صفحة 92.

(2) رواه ابن حبان ج 15 ص 223، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

(1) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج 3 ص 135.

والبركة نفع، والدجال لا نفع فيه [1].

فذكر الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ضرورة عقَدِية لتصور أعمال الدجال تصوراً صحيحاً.

والإبانة والاستقامة في الكتاب تتطلب في مواجهة الدجال إثبات المقتضى الواقعي للإبانة والاستقامة، وهو الفرقان في الواقع بالرسالة والنبوة التي يتحقق بها هذا الفرقان في حياة الناس، مثلما كان الفرقان في القدر الإلهي المحكم.

ولقد كان ارتباط الدجال بالدخان جانبا أساسيا للمقارنة بين الدجال وليلة القدر، وهي صفة الليلة المقابلة للدخان.

فمن أهم جوانب التقابل بين ليلة القدر والدخان: وصف النبي صلى الله عليه وسلم لصفاتها الكونية المقابلة تماماً للدخان بمثل قوله: « إِنَّ أَمَارَةَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَنَّهَا صَافِيَةٌ بَلْجَةٌ، كَأَنَّ فِيهَا قَمَرًا سَاطِعًا سَاكِنَةٌ سَاجِيَةٌ، لاَ بَرْدَ فِيهَا وَلاَ حَرَّ، وَلاَ يَحِلُّ لِكَوْكَبٍ أَنْ يُرْمَى بِهِ فِيهَا حَتَّى تُصْبِحَ، وَإِنَّ أَمَارَتَهَا أَنَّ الشَّمْسَ صَبِيحَتَهَا تَخْرُجُ مُسْتَوِيَةً لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ مِثْلَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَلاَ يَحِلُّ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مَعَهَا يَوْمَئِذٍ »..[2]

« لَيْلَةٌ سَمْحَةٌ طَلْقَةٌ لَا حَارَّةٌ وَلَا بَارِدَةٌ يُصْبِحُ شَمْسُها صَبِيحَتَهَا ضَعِيفَةً حَمْرَاءَ »..[3]

« إِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ بَيْنَ قَرْنَيَ شَيْطَانٍ إِلاَّ صَبِيحَةَ بَدْرٍ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْضَاءَ لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ »[4].

---

(2) وهو الوصف الذي وصف به رسول الله ﷺ الدجال حين قال عنه: « يَمْكُثُ أَبَوَا الدَّجَّالِ ثَلاَثِينَ عَاماً لاَ يُولَدُ لَهُمَا ثُمَّ يُولَدُ لَهُمَا غُلاَمٌ أَعْوَرُ أَضَرُّ شَىْءٍ وَأَقَلُّهُ نَفْعاً تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ » رواه أحمد من حديث أبي بكرة ج 44 ص 300.

(3) أخرجه أحمد (324/5 ، 22817) ، قال الهيثمى (175/3) : رجاله ثقات . والضياء (279/8 ، رقم 342)، "بلجة": مشرقة، "ساجية": ساكنة.

(4) أخرجه الطيالسي (2680) ، وابن خزيمة في "صحيحه" (3/ 331-332) ، وكذا الضياء في "المختارة" (64/ 43/ 2).

(1) هكذا أورده الحافظ ابن حجر معزواً لابن أبي شيبة، لكنه ورد في النسخة المطبوعة من المصنف بهذا اللفظ: "صبيحة بدر".

ولما كان الفرقان يتنافى مع الدجال وأفعاله، كان من مقتضيات الرسالة وواجب كل رسول أن ينذر أمته من هذه العلامة. لأن هذا الإنذار أهم مقتضيات ذلك الفرقان: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾..

وقد تحقق معنى الإنذار الإلهي في قضية الدجال مع علامات الساعة الأساسية، كما قال رسول الله ﷺ: « إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة والثالثة الدجال» [1].

وقال ﷺ أيضاً: « ما ينتظر أحدكم إلا غِنًى مُطْغِياً، أو فقرا منسيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال والدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وَأَمَرّ » [2].

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: 4]

يقول الإمام ابن كثير: "وقوله {فيها يفرق كل أمر حكيم} أي في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآَجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها".

ومن الضروري إثبات أن الآجال والأرزاق من أمر الله المحكم، لأنه ستكون للدجال فتنة في هذا الأمر، كما أن أفعال الدجال من حيث الإحياء والإماتة ومن حيث الرزق والذهب وجبال الخبز وسمن مواشي من يفتن به، وجوع من يكفر به، تتطلب حسما إيمانياً في قضية الأجل والرزق.

ومن الضروري إثبات أن قدر الله يكون كل عام في ليلة القدر، لأن هذه الحقيقة هي التي تثبت أن بقاء الدجال إلى آخر الزمان سيكون محكوماً بقدر الله، وأن كل عام يعيشه الدجال حتى ظهوره في آخر الزمان محكوم بقدر الله سبحانه، وأن بقاء الدجال حتى هذا الوقت لا يخرجه عن تقدير الله وإحكامه.

---

(2) رواه الطبراني عن هاشم بن يزيد عن محمد بن إسماعيل بن عياش به وهذا إسناد جيد.

(3) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين – (ج 18 / ص 278).

ولهذا قال رسول الله ﷺ في رواية تجمع بين القدر والأجل: " اخسأ فلن تعدو قدرك – أجلك "[1].

يقول الإمام ابن حجر في الفتح: قَوْله : "(فَلَنْ تَعْدُو قَدْرك) أَيْ لَنْ تُجَاوِز مَا قَدَّرَ اللَّه فِيك أَوْ مِقْدَار أَمْثَالك مِنْ الْكُهَّان".

وعن هشام بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من خلق الدجال".

و"يفرق" معناها يقدر ولكن جاء بلفظ يفرق الذي يثبت الفرق بين الأمر الحكيم وبـــين أفعال الدجال.

وقوله جل وعلا: {حكيم} أي محكم لا يبدل ولا يغير, ولهذا قال جل جلاله: {أمراً من عندنا} أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه وكلمة " حكيم " هنا لها مناسبة مع الدجال لأن أعمال الدجال قد تبدو خارج معنى الإحكام، مثل أن تكون ناره جنة، وجنته نار، ومثل تمثل الشياطين في صورة الآباء، فكل أعمال الدجال ــ في أمر الله المحكم ــ لا تخرج عن معنى الفتنة

فكان لابد من إثبات أن الإحياء والإماتة على وجه الحقيقة هي لله، وإن كان الدجال سيقتل رجلاً ثم يحييه.. فإنما سيكون ذلك بأمر الله.. فتنة وابتلاءً.

ولابد أن نؤمن بالإحكام في أقدار الله؛ حتى لا نتساءل عن الأجل المكتوب فيمن يميته الدجال ثم يحييه.. فالله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

ــ ومن أقوى الأدلة على أن قدر الله هو الإحاطة الكاملة بفتنة الدجال هو أن الدجال لن يخرج إلا عند فساد الاعتقاد في القدر، ودليل ذلك قول رسول الله ﷺ: « إن لكل أمة مجوساً، وإن مجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، فمن مرض منهم فلا تعودوه، ومن مات منهم فلا تشهدوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله عز وجل أن يلحقهم به »[2].

---

(1) (مصنف عبد الرزاق – (ج 11 / ص 390) روي عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف، انظر شرح ابن بطال – (ج 5 / ص 380).

(2) أخرجه أبو داود، والبيهقي في السنن الكبرى (ج 10 / ص 203).

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: 5]

ويتمم معنى كلمة **(يُفْرَقُ)** وكلمة **(حَكِيمٍ)** كلمة **(أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا)**، فكما عالجت الآية السابقة أمر الفرقان والإحكام، تعالج هذه الآية أمرا آخر وهو أن أعمال الدجال بكل ما يوهم فيها بأن الدجال يملك أمورا ليست للبشر.. لا تخرج عن قدر الله، مما يتطلب الإيمان بأن ذلك من أمر الله، ومن عند الله، ومن هنا كان قول الله في الآية:

(أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا) .. ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾

والرسالة هي المواجهة الكاملة مع الدجال، ولهذا قال رسول الله ﷺ: « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم »[1].

ولكن الفرقان والإحكام في أمر الله يقتضي ألا يُترك الناس لهذه الفتنة، فكان لابد من إرسال المرسلين. فالرسالة والنبوة هي التي تحقق في حياة الناس الفرقان، ولما كان الفرقان يتنافى مع الدجال وأفعاله، كان من واجب الرسالة أن يحذر كل رسول أمته من هذه العلامة، ليكون هذا التحذير أهم مقتضيات هذا الفرقان.

كما قال النبي ﷺ: « ما من نبي إلا وأنذر أمته الدجال وأنا أزيدكم فيه تحذيراً ».

ومن هنا كان التبيين الكامل من الرسول ﷺ لوصف الدجال من البداية حتى يقتله عيسى ابن مريم، بتفصيل لم يكن في أي قضية أخرى:

- مثل تفصيل الفوارس التي ستستطلع خبر الدجال بعد الملحمة: قال فجاءهم الصريخ[2] أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة. قال رسول الله ﷺ: " إني لأعلم أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ ".
- ومثل صفة الشاب الذي سيقتله الدجال ثم يعجز عن موته مرة أخرى.
- ومثل كيفية قتل عيسى للدجال، ومكان قتله، وأداة قتله، وكيفية قتله.

---

(1) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. (ج 7 / ص 301).

(2) الصريخ: المستنجد.

﴿ **رَحْمَةً مِنْ ربك إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [الدخان: 6]

ولم يقل هو "الغفور الرحيم"، مع أن التعقيب إنما جاء على ذكر الرحمة الربانية، وذلك لدلالة اسم "السميع العليم" على الجانب الغيبي في موضوع الرحمة، وهو قضية الدجال الغيبية.

فالإنذار رحمة من الله لأنه نجاة من الفتنة، ولكنه رحمة من ﴿ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ المحيط بغيب الدجال، وهو سبحانه القادر وحده على إنزال الكتاب المبين، القادر وحده على تحقيق الفرقان، كما قال النبي ﷺ: « ما من نبي إلا وأنذر أمته الدجال وأنا أزيدكم فيه تحذيراً » [1].

﴿**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ**﴾ [الدخان: 7]

والإيمان برب السماوات والأرض هو أهم حقائق الاعتقاد التي تبرز أمام أعمال الدجال؛ لأن حركة الدجال وآثاره في الوجود الكوني لا تخرج عن حقيقة الربوبية الكاملة الشاملة لله عز وجل في السموات والأرض، حيث ستكون أعمال الدجال ذات آثار خطيرة في السموات والأرض، مثل أمره للسماء بالمطر فتمطر، ومتابعة كنوز الذهب له كيعاسيب النحل، وأن يكون معه جبال خبز، وجنة ونار..

ومن هنا كان تعظيم اليهود للدجال وآثاره الكونية.. ومواجهة هذا التعظيم كما ورد في تفسير قول الله عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [غافر:56-57].

روى الإمام ابن أبي حاتم عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:"إِنَّ الْيَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ الدَّجَّالَ يَكُونَ مِنَّا فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَيَكُونُ مِنْ أَمرِهِ فَعَظَّمُوا أَمْرَهُ، وَقَالُوا: بِضْعُ كَذَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: "إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ

---

(1) عن أبي العالية قال: إن اليهود ذكروا الدجال، وعظموا أمره، فنزل: { إِنَّ الذين يجادلون فِي آيات الله } يعني: إن الدجال من آيات الله { فاستعذ بالله } من فتنة الدجال، فإنه ليس ثم فتنة أعظم من فتنة الدجال. { إِنَّهُ هُوَ السميع } لقول اليهود، {البصير} يعني: العليم بأمر الدجال. ويقال: { السميع } لدعائك، { البصير } برد فتنة الدجال عنك.

فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ" ، قَالَ: لا يَبْلُغُ الَّذِي يَقُولُ: "فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ" ، فَأَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَتَعَوَّذَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ "لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ"، الدَّجَّالِ".

عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ:" " إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ " ، قَالَ: هُمُ الْيَهُودُ نَزَلَتْ فِيهِمْ فِيمَا يَنْتَظِرُونَهُ مِنْ أَمْرِ الدَّجَّالِ".

قال أهل التفسير[1]: نزلت في اليهود، وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: إن صاحبنا المسيح بن داود -يعنون الدجال- يخرج في آخر الزمان، فيبلغ سلطانه في البر والبحر، وفي رواية: (فيخوض البحر، وتجري معه الأنهار)، ويرد الملك إلينا.

قال الله تعالى: { فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } من فتنة الدجال، { إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }.

قال الكلبي ومقاتل: { لَخَلْقُ السموات والأرض } أعظم من خلق الدجال.

﴿**إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ**﴾ [الدخان: 7]

ومناسبة اليقين هنا لا تفهم إلا بحادثة قتل الدجال للشاب، ومن هنا وصف الرسول ﷺ شهادة هذا الشاب الذي سيقتله الدجال بأنها أعظم شهادة عند رب العالمين، لأن الله عز وجل قد جعل عجز الدجال عن قتل الشاب مرة دليلاً على معنى الفتنة في إحياء الدجال للميت؛ كما جاء في الحديث، فيقول: أنت المسيح الكذاب، قال فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين ثم يقول له: قُمْ فيستوي قائماً قال: ثم يقول له أتؤمن بي ؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به، فيحسب الناس إنما قذفه إلى النار، وإنما ألقى به في الجنة، فقال رسول الله ﷺ: " هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين ".

أعظم الناس شهادة: لأن يقينه كان كاملا..

---

(1) تفسير القرطبي - (ج 15 / ص 284) تفسير البغوي - (ج 7 / ص 153) فتح القدير - (ج 6 / ص 334)، بحر العلوم للسمرقندي - (ج 4 / ص 62) الدر المنثور - (ج 9 / ص 11).

ولأنه واجه الدجال في قمة سلطانه كما يواجه الرجل أي صاحب سلطة.. ليكــون إذا قتله سيداً للشهداء..

ولأنه آمن بقول الرسول ﷺ في الدجال حتى آخر الزمان، ولم يباعد الزمان بينه وبين اليقين بالنص، وبقول رسول الله ﷺ أن الدجال لن يمكن منه مرة أخرى..

ولأنه بعد القتل والإحياء ما ازداد إلا بصيرة..

ولأنه أعلن على الناس هذا اليقين ليؤمنوا مثلما آمن.

أما قدرة الله عز وجل فهي القدرة الدائمة:

﴿ **لَا إِلَهَ إِلَّا هُو يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ [الدخان: 8]

إن الآية التي تثبت لله عز وجل القدرة على الإحياء والإماتة – بإطلاق– إنما تحدد فارقاً جوهرياً بين قدرة الله وفتنة الدجال في هذا الأمر.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُو... ليس أحد سواهَ.. لا يُحْيِي الدجال ولا يَمِيتُ على وجه الحقيقة، بل على وجه الفتنة.

وكما كانت لقول الله ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ دلالة في مواجهة فتنة الدجال، كذلك يكون لقول الله: ﴿**رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾، وهذه الدلالة يفسرها قول رسول الله ﷺ: « وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لأَعْرَابِىٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّى رَبُّكَ فَيَقُولُ نَعَمْ. فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِى صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَقُولاَنِ: يَا بُنَىَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ » (1).

فربوبية الله عز وجل لهؤلاء الناس ولآبائهم الأولين هي التي تحقق الاطمئنان علـــى المصير وليس الشياطين المتمثلين في صورة الآباء..

وإن خرج علينا من يقول وهو في صورة هؤلاء الآباء: الدجال ربكم.. نقول لـــه: الله ربنا ورب آبائنا الأولين، حتى لو تمثلت الشياطين وأتباع الدجال في صـــورة آبائنـــا الأولين..

---

(1) رواه ابن ماجه وإسناده قوي.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: 9]

ومع كل موجبات اليقين والحذر وكل أسبابه اللازمة لمواجهة الفتنة: "هم في شك"..

ومع خطورة الأمر وعظم القضية: "هم يلعبون"..!

وهذا هو المدخل إلى الفتنة: الشك واللعب.

أما الشك فعلاقته بالفتنة يفسرها قول الله عز وجل (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) (آل عمران:7)

حيث فسر الزيغ بالشك الذي تكون به الفتنة

ويذكر رسول الله ﷺ الدجال باعتباره أخطر ما يمكن أن يواجه البشر: « ما ينتظر أحدكم إلا غِنًى مُطْغِياً، أو ...، أو الدجال والدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وَأَمَرّ » [1]..

ومع ذلك هم: "يلعبون"..!

ويبين النبي ﷺ أنه: «ما من نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال»..

وهم: "يلعبون"..!

وعندما يكون الشك تكون الفتنة..

أما مواجهة الفتنة فهي كما كانت من الشاب الذي سيقتله الدجال.. يقتله بمنشار يشقه نصفين.. يمر بينهما.. يدعوه فيقوم.. ويقول: له أنا ربك. فيقول: أنت الدجال ما ازددت فيك إلا بصيرة !

اليقين أو الفتنة.. ولا ثالث لهما !

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: 10-12]

والروايات الواردة في تفسير الآية تدور حول معنيين:

- الدخان الذي أصاب قريش بعد دعوة رسول الله عليهم [2]..

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين - (ج 18 / ص 278).

(2) إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف, فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان، وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما

- والدخان الذي سيكون في آخر الزمان..

ولكل من التفسيرين علاقة بالدجال:

- الأول: العلاقة هي الجوع الذي أصاب قريش، وهي مثال على قدر الله المحكم أن يحرم عباده من الرزق رحمة بهم حتى يؤمنوا، وإذا دعوه يرفع عنهم العذاب وهو يعلم سبحانه أنهم عائدون إلى كفرهم.

فلماذا لم يبق الله العذاب حتى يؤمنوا ؟!

ولماذا يكشف الله العذاب عنهم وهو يعلم سبحانه أنهم عائدون؟!

ذلك لأن الله لا يريد لعباده أن يجوعوا، ولكنه عز وجل يريد أن يلجئوا إليه، ويؤمنوا به، فإذا وقع العذاب ولم يؤمنوا لا يبقيه..

وإذا دعوه ليكشف عنهم العذاب لا يبقيه..

وإذا لم يؤمنوا بعد حدوث ما يكفي من العذاب لإيمانهم لا يبقيه..

وتلك هي مقتضيات الإلوهية الحق، ليس كما يفعل الدجال الذي يجعل من لا يؤمن به من الناس يجوع..

ومن هنا كان من معاني الدخان: "الجدب والجوع".

وقدر الله في عذاب الناس يبدأ بحرمانهم من نعمة التذكر والتدبر بعد أن جاءهم الرسول المبين:

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: 13]

ثم لا يكون العذاب إلا بعد وقوع أشد موجباته وهو هنا التولي عن الرسول المبين واتهامه بأنه معلم مجنون:

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: 14]

ومع ذلك يكشف الله عنهم العذاب وهو سبحانه يعلم أنهم عائدون إلى الكفر فكشف الله عنهم العذاب قليلا حتى تكون البطشة الكبرى.

بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. قال الله تعالى: {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم} فأتى رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى ﷺ لهم فسقوا فنزلت {إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون}.

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: 15]

وهذه الآية تظهر حقيقة هامة من حقائق التقدير الإلهي وهي الإحكام الذي يبلغ كشف العذاب مع علم الله بأنهم عائدون وأن كشف العذاب " قليلا" وهي تفيد معنى التقدير الزمني المحكم الذي يمتد لتكون البطشة الكبرى في يوم مقدر:

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: 16]

والبطشة الكبرى بإجماع المفسرين هي غزوة بدر، والمناسبة بين الدجال وغزوة بدر هي المناسبة بين البداية والنهاية، لأن بداية القتال هي بدر، ونهايته هي قتال الدجال، كما قال رسول الله ﷺ: **(حتى يقاتل آخرهم الدجال).**

والربط بين الدجال وغزوة بدر ربط قرآني ورد في مواضع متعددة منها سورة القمر وسورة غافر

ففي سورة القمر جاء في تفسير قوله تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) [القمر:45-46] أن قتادة رضي الله عنه ذكر أن النبي ﷺ قال يوم بدر: « هُزِمُوا وَوَلَّوا الدُّبُر » وهو تفسير" سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ " هذا عن بدر.. ثم جاء بعدها: "بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَر "[1].

حيث جاء ذكر الدجال مع ذكر الساعة بصفتها الواردة في الآية: "أَدْهَى وَأَمَر" ضمن ما ينتظره الناس من أهوال الغيب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺقال: « ما ينتظر أحدكم إلا غِنًى مُطْغِياً، أو فقرا منسيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال والدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة **والساعة أدهى وَأَمَرّ** » [2].

وفي سورة غافر تتضح العلاقة بين الدجال وغزوة بدر من خلال ما ورد عن مقاتل في تفسيره: { فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ } **في العذاب أنه نازل بهم القتل ببدر**، وضرب الملائكة الوجوه والأدبار، وتعجيل أرواحهم إلى النار، فهذا العذاب { واستغفر لِذَنبِكَ

---

(1) أخرجه ابن المبارك في الزهد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وابن مردويه..

(2) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين - (ج 18 / ص 278).

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشي والإبكار } [غافر: 55] يعنى وصَلِّ بأمر ربك بالغداة، يعني صلاة الغداة، وصلاة العصر.

ثم جاء قول الله سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (غافر:56)

وذلك أن اليهود قالوا للنبى ﷺ: إن صاحبنا يبعث في آخر الزمان **<u>وله سلطان، يعنون الدجال</u>**، ماء البحر إلى ركبته، والسحاب فوق رأسه –مبالغة يهودية في الدجال–، فقال: { إِنَّ الذين يُجَادِلُونَ في آيَاتِ الله } يعنى يمارون في آيات الله، لأن الدجال آية من آيات الله عز وجل { بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ } يعنى بغير حجة أتتهم من الله، إضمار بأن الدجال كما يقولون، يقول الله عز وجل: { إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ } يقول: ما في قلوبهم إلا كِبْرٌ { مَّا هُم بِبَالِغِيهِ } إلى ذلك الكبر لقولهم: إن الدجال يملك الأرض { فاستعذ بالله } يا محمد من فتنة الدجال { إِنَّهُ هُوَ السميع } لقولهم يعنى اليهود { البصير } [آية: 56] به.

ثم قال: { لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس } **يعنى بالناس في هذا الموضع: الدجال وحده**، يقول: خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، يقول: هما أعظم خلقاً من خلق الدجال { ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [آية: 57] يعني اليهود.

إن الدجال يدخل على الناس لفتنتهم في الدنيا بتمثل الشياطين لهم في صورة آبائهم الذين في عالم الغيب وهو من قبيل السحر في الأعين.

والفصل بين الغيب والشهادة هو الأساس القدري الكوني الذي جعله الله بين الدنيا والآخرة، والاستثناء من هذه القاعدة لا يكون إلا بمعجزة محدودة مثلما كان من رسول الله ﷺ في غزوة بدر: " فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد رحلها، ثم مشي واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل ينادي بأسمائهم وأسماء آبائهم وقد جيفوا: " يا أبا جهل ابن هشام ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا وليد بن عتبة "، أيسركم أنكم أطعتم الله

ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قال: فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، وهل يسمعون ؟ بقول الله عز وجل: ﴿ إنك لا تُسمع الموتى ﴾ فقال رسول الله ﷺ: " والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم والله إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم لهو الحق ". وفي رواية: " إنهم الآن ليسمعون غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علِيَّ شيئاً".

ويظهر الاستثناء المحدود من عدة أمور:

– أن يكون للرسول دون غيره من الصحابة.

– أنهم لا يستطيعون الرد، ولذلك: قال قتادة: أحياهم الله (له) حتى أسمعهم قوله، توبيخاً وتصغيراً، ونقمة، وحسرة وندماً ".

فيتقابل الوعد الحق من الله سبحانه على لسان نبيه ﷺ، مقابل الوعد الباطل الكاذب من الدجال في صورة الشياطين بأن يموتوا على غير الإسلام كما في الحديث.

وكل ما سبق من الآيات يعالج قضية القدر، ويتمم هذه المعالجة قضية فرعون، لتكون هذه المعالجة هي مناسبة الآية:

﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**﴾ [الدخان : 17]

لأن هذه القضية هي المثل المضروب للقدر الذي تعالجه الآيات، ومن هنا جاء قول ابن عباس عن الضحاك بن عثمان، قال: « وافيت الموسم، فلقيت جماعة في مسجد الخيف، ذكرهم، قال: ورأيت طاوساً اليماني فسمعته يقول لرجل: إن القدر سر الله، فلا تدخلن فيه، ولقد سمعت أبا الدرداء يحدث عن نبيكم ﷺ، أن موسى عليه السلام لما خرج من عند فرعون متغير الوجه، استقبله ملك من خُزَّان النار وهو يقلب كفيه متعجبا لما قال له الروح الأمين: إن ربك أرسلك إلى فرعون مع أنه قد طبع على قلبه فلن يؤمن، قال: يا جبريل فدعائي ما هو؟ قال: امض لما أمرت، قال: صدقت، ثم

قال: يا موسى نحن اثنا عشر ملكا من خزان النار، قد جهدنا على أن نسأل في هــذا الأمر فأوحي إلينا أن القدر سر الله تبارك وتعالى، فلا تدخلوا فيه»[1].

وفي رواية الترمذي: «حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ سُلَيْمٍ قَالَ: قَدِمْتُ مَكَّةَ فَلَقِيتُ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! إِنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ يَقُولُونَ فِي الْقَدَرِ.. قَالَ: يَا بُنَيَّ أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ: نَعَمْ! قَالَ: فَاقْرَأْ الزُّخْرُفَ، قَالَ فَقَرَأْتُ: { حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حكِيمٌ }، فَقَالَ أَتَدْرِي مَا أُمُّ الْكِتَابِ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ!

قَالَ: فَإِنَّهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْأَرْضَ، فِيهِ إِنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَفِيهِ { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ }..

قَالَ عَطَاءٌ: فَلَقِيتُ الْوَلِيدَ بْنَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّــهُ عَلَيْــهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْتُهُ: مَا كَانَ وَصِيَّةُ أَبِيكَ عِنْدَ الْمَوْتِ؟

قَالَ: دَعَانِي أَبِي فَقَالَ لِي يَا بُنَيَّ اتَّقِ اللَّهَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ حَتَّى تُــؤْمِنَ بِاللَّــهِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَإِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّــارَ، إِنِّــي سَــمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ اكْتُبْ، فَقَالَ مَا أَكْتُبُ قَالَ اكْتُبْ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ».

ومن هنا جمع الثعالبي في تفسيره بين فرعون والدجال في قضية القدر فقال في قوله تعالى: (طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِــالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (القصص:1-3) : (يذبح أبناءهم) خوف خراب ملكه على ما أخبرتــه كهنته، أو لأجل رؤيا رآها, قاله السدي، وطمع بجهله أن يرد القدر، وأين هذا المنزع من قول النبي ﷺ لعمر: إن يكنه فلن تسلط عليه وان لم يكنه فلا خير لك في قتلــه -يعني ابن صياد- إذ خاف عمر أن يكون هو الدجال وباقي الآية بيِّن وتقدم قصــصه والأئمة ولاة الأمور قاله قتادة.

---

(1) الإبانة الكبرى لابن بطة - (ج 5 / ص 55).

فيكون موقف فرعون الخاطئ من القدر "طمع بجهله أن يرد القدر" نموذجـا يقابلـه موقف الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيح " إن يكنه فلن تسلط عليه ".

وتتواصل المناسبة من خلال السياق الذي ذُكر فيه فرعون:

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان : 18]

يطلب رد بني إسرائيل إليه، فالإنسان أمانة، وهو يطلب أداء الأمانة إليه [1].

عن مجاهد، قوله: (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ) قال: أرسلوا معي بني إسرائيل[2].

عن قتادة (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ) يعني به بني إسرائيل، قال لفرعون: علام تحبس هؤلاء القوم، قوما أحرارا اتخذتهم عبيدا، خلّ سبيلهم.

قال ابن زيد في قوله: (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ) قال: يقول: أرسل عباد الله معي، يعني بني إسرائيل، وقرأ (فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ) قال: ذلك قوله: (أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ) قال: ردّهم إلينا.

وقوله(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) يقول: إني لكم أيها القوم رسول من الله أرسلني إليكم لا يدرككم بأسه على كفركم به، (أمين): يقول: أمين على وحيه ورسالته التي أوعدنيها إليكم..

ومن هنا يربط رسول الله ﷺ بين الأمانة والشعوب فيقول: (إِنَّ أَمَامَ الدَّجَّالِ سِنِينَ خَدَّاعَةً، يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَتَكَلَّمُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الْفُوَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ) [3].

فتأكد التماثل بين فرعون والدجال بين الخونة المؤتمنين مثل فرعون، وبين الأمين الحقيقي مثل موسى.

ولم يكن ائتمان فرعون وتخوين موسى هو الأمر الوحيد في واقع فرعون، فلقد كان واقع فرعون في تناقضه إجمالاً أقرب شَبَهاً بواقع الدجال حتى قال فرعون في

---

(1) تفسير الطبري – (ج 22 / ص 24).

(1) تفسير الطبري – (ج 22 / ص 25).

(1) أخرجه أحمد (220/3، رقم 13322) وصحح الألباني نحوه (السلسلة الصحيحة–1887).

موسى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) (غافر:26).

وقال (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) (غافر:29).

موسى " يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ "..

وفرعون لا يهدي " إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَاد "..

وتتواصل المناسبة من خلال السياق الذي ذكر فيه فرعون:

﴿**وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ [الدخان : 19].

والعلو هنا هو المناسبة بين فرعون والدجال؛ لأن معنى الدخان هو العلو بالشر وقد ثبت هذا الوصف على فرعون والدجال.

ومن هنا كان من معاني الدخان كما جاء في لسان العرب: الشر الذي يعلو.

ولما كان من الضروري التفريق بين آيات الله وأفعال الدجال كان من وصف آيات الله بأنها سلطان مبين ليتبين الفرق بين أفعال الدجال القائمة على الفتنة والخداع والسحر وأفعال الله الحقيقية القوية الواضحة الهادية وهو معني السلطان المبين.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان : 20] هذه الآية تحتمل معنيين:

<u>الأول: أن يكون معناها الدعاء..</u>

أي يقصد بها المضارع والمستقبل، وتقديره: أعوذ بالله أن ترجموني أي تقتلوني..

<u>الثاني: أن يكون معناها الخبر..</u>

أي أن موسى سبق أن توقع منهم القتل فدعا ربه:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:33]، فأجابه الله بقوله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾[القصص:35]، فهو يخبرهم بأن الله سيعصمه منهم، ويتحداهم أن يصلوا إليه إيماناً بوعد ربه وثقة به، ولذلك نصحهم بقوله:

﴿**وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ**﴾ **[الدخان : 21]**

أي إن لم تؤمنوا بي فاتركوني أخرج من أرضكم أنا وقومي، ولا تحاولوا قتلي، لأنكم لن تستطيعوا ذلك.

ولذلك أيضاً كان ردُّه على قومه حين قالوا لما تبعهم فرعون بجنوده:
﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[الشعراء:61].. ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء:62].

ويؤكد ذلك ما قاله الإمام البقاعي في "نظم الدرر": " {وإني عذت} أي اعتصمت وامتنعت {بربي} الذي رباني على ما اقتضاه لطفه بي وإحسانه إليّ {وربكم} الذي أعاذني من قتلكم لي بكم على ما دعت إليه حكمته من جبروتكم وتكبركم وقوة مكنتكم { أن ترجمون } أي أن يتجدد في وقت من الأوقات قتل منكم لي ، ما أتيتكم حتى توثقت من ربي في ذلك ، فإني قلت { إني أخاف أن يقتلون } فقال { سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا } [القصص : 38] فهو من أعظم آياتي أن لا تصلوا على قوتكم وكثرتكم إلى قتلي منع أنه لا قوة لي بغير الله الذي أرسلني.

ولما كان التقدير: فإن آمنتم بذلك وسلمتم لي أفلحتم، عطف عليه قوله: { وإن لم تؤمنوا لي } أي تصدقوا لأجلي ما أخبرتكم به { فاعتزلون } أي وإن لم تعتزلوني هلكتم ، ولا تقدرون على قتلي بوجه وأنا واحد ممن تسومونهم سوء العذاب ، وما قتلتم أبناءهم إلا من أجلي ، فرباني على كف من ضاقت عليه الأرض بسببي وسفك الدماء في شأني ، ومنعه الله من أن يصل إليّ منه سوء قبل أن أعوذ به ، فكيف به بعد أن أرسلني وعذت به فأعاذني ، واستجرت به فأجارني".

وبمثل هذا اليقين الذي واجه به موسى فرعون، سيواجه ذلك الشاب المؤمن الدجال، كما روى أَبو سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ –مَسَالِحُ الدَّجَّالِ– فَيَقُولُونَ لَهُ: أَيْنَ تَعْمِدُ ؟ فَيَقُولُ: أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِى خَرَجَ – قَالَ – فَيَقُولُونَ لَهُ: أَوَمَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا ؟ فَيَقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ. فَيَقُولُونَ: اقْتُلُوهُ . فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ – قَالَ – فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ، فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِى ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– قَالَ فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ فَيَقُولُ: خُذُوهُ وَشُجُّوهُ. فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ

وَبَطْنُهُ ضَرْبًا – قَالَ – فَيَقُولُ: أَوَمَا تُؤْمِنُ بِى ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ – قَالَ – فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ بِالْمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ – قَالَ – ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ. فَيَسْتَوِى قَائِمًا – قَالَ – ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِي ؟ فَيَقُولُ: مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلاَّ بَصِيرَةً – قَالَ – ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لاَ يَفْعَلُ بَعْدِى بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ – قَالَ – فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ فَيُجْعَلَ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا فَلاَ يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلاً .....».

وأخيراً ينطلق موسى بالحكم عليهم:

﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ**﴾ [الدخان : 22]

ويصدق الله على حكم موسى ويستجيب له بعد أن دعا عليهم.

هكذا يكون التعامل بين الله والعباد.. لا يكون الحكم إلا بعد الرسالة والبيان والحجة.

وهذه الحقيقة هي التي تصلح في الواقع بداية للمقارنة بين أفعال الله عز وجل وأفعال الدجال: ﴿**فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ**﴾ [الدخان : 23]

(**مُّتَّبَعُونَ**).. دليل على إحاطة الله بالأحداث..

﴿**وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ**﴾ [الدخان : 24]

وهنا نجد أنفسنا أمام فعل من أفعال الله عز وجل..

أن يصل موسى إلى البحر، فيأمره ربه أن يضرب بعصاه البحر فينشق، آية حقيقية ليست سحراً مثلما فعل السحرة ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:116]..

ولكنه كان انشقاقاً فعلياً للبحر حتى قال سبحانه وتعالى: { وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا } أي ساكناً، وهذه الحادثة تكشف حقيقة هائلة من حقائق التقدير الإلهي، وهي الفعل الواحد والسبب الواحد مع تعدد النتائج، وهي قاعدة قرآنية في إثبات طلاقة المشيئة الإلهية..

ينشق البحر فينجو موسى ومن معه، ويغرق فرعون ومن معه.

﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ** ﴾ [الدخان : 25-27] مقارنة أخرى حسب ترتيب الآيات بين فعل الله وفعل الدجال، وقد تقرر أن حقيقة الفعل الإلهي تؤكد ولاية الله لجميع الخلائق، وفعل الدجال ينفي علاقته بهذا المقام.

فالذي لا يؤمن بالدجال يجوع..

ولكن الله عز وجل يرزق من يكفر به، ودليل ذلك هو رزق الله لفرعون وهو أشد البشر كفراً حتى بلغ ادعاء الألوهية.. ومع ذلك بلغ رزق الله.. ما تصفه الآية.

ومع استحقاقهم للهلاك كان الرزق وفيرا لم يمنعه الله عنهم وهو ينتقم منهم، ليس كما يفعل الدجال الذي يمنع الطعام عمن لا يؤمن به.

وهذه المقارنة فيها إظهار كامل لصفات الله الحق الذي يرزق عباده وهم يكفرون به.

وحتى عندما يتقرر حكم الله بحرمانهم منها، فإنها تورث إلى قوم آخرين، لأنها رزق الله، ورزق الله باق:

﴿**كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ**﴾ [الدخان : 28-29].

وهذه الآية تثبت العلاقة بين الكون والحق، فالكون مسلم لله رب العالمين وهذا يفسر الظواهر التي ستكون من الدجال بأنها ليست ولاءً كونيا للدجال ولكنها مجرد الفتنة أما الولاء الكوني فهو لله عز وجل..

والباطل ليس له مستقر كوني، وليس للكفر أصل كوني.

والدجال هو الدليل الأول على طبيعة الكفر، وذلك عندما يضربه عيسى ابن مريم فيذوب كما يذوب الملح أو كما يذوب الرصاص كأنه لم يكن.. **يذوب** ولا يبقى له وجود ولا أثر.

وتُعَبِّر سورة الدخان عن هذه الحقيقة بقوله عز وجل:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان : 29]

وأحداث الدجال الكونية تحتم إدراك الموقف الكوني من الحق، والآية تثبت هذا المعنى فالسماوات والأرض مع أهل الحق وبريئة من أي أحداث باطلة في الكون.

وموقف الكون من الإسلام وأهله هو الولاء، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، أَلَا إِنَّهُ لَا غُرْبَةَ عَلَى مَنْ مَاتَ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ غَابَ فِيهِ بَوَاكِيهِ، إِلَّا بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ » ثم قرأ رسـول الله ﷺ (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ) ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر»[1].

ودليل أهمية هذا المعنى هو قول رسول الله ﷺ في جبل أحد: «هذا الجبل يحبنا ونحبه» وذلك بسبب هزيمة المسلمين عنده، فيثبت الرسول ﷺ موقف حب الجبل للمسلمين.

فعندما نقرأ أن كنوز الذهب تتبع الدجال لا نتصور أن هذا ولاءً كونيا للدجال ولكنها الفتنة المقدرة من الله للبشر.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان : 30-32]

يقول الإمام البقاعي: " {على علم} أي منا بما يكون منهم من خير وشر".

وعلم الله هو أول مراتب التقدير، فما يعلمه الله يقضيه، وما يقضيه يشاءه، وما يشاءه يفعله، فجاءت الآية لتتمم تفسير القدر الإلهي..

قوله تعالى: "ولقد اخترناهم" يعني بني إسرائيل." على علم " أي على علم منا بهم [2].

أي: اختارهم الله على عالمي زمانهم على علم منه باستحقاقهم لذلك [3].

عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال: اخترناهم على خير، علمه الله فيهم على العالمين، قال: العالم الذي كانوا فيه [4].

---

(1) تفسير الطبري (75/25) ورواه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت كما في الدر المنثور (412/7) وهو مرسل.

(2) تفسير القرطبي - (ج 16 / ص 142).

(3) فتح القدير - (ج 6 / ص 429).

(4) الدر المنثور - (ج 9 / ص 125).

ولكن علم الله ببني إسرائيل بخيرهم وشرهم يظهر في الواقع التاريخي لبني إسرائيل من خلال علامة الدجال.

والتصور المنهجي للعلامات يُثبت دوراً استثنائياً لبني إسرائيل في التحقيق المطلق لاختيار الله لهم على العالمين، وهو أن يكون فتح القسطنطينية على يد سبعين ألفاً من ولد إسحاق وأن فتحهم للقسطنطينية سيكون بالتهليل والتكبير.

ولعلنا نلاحظ أن عدد الذين سيفتحون القسطنطينية من بني إسحاق هم نفس عدد الذين سيتبعون الدجال من اليهود.عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة" [1]، إنه الدليل النهائي على اختيار الله لبني إسرائيل على علم على العالمين.

"**على علم**" يبلغ هذه المساواة العددية الدقيقة بين عدد أتباع الدجال وعدد أتباع المهدي (سبعون ألفاً) يفتحون القسطنطينية بالتهليل والتكبير والذين من أجلهم ستكون الملحمة حيث سيطلبهم الروم وهم من بني عيسو أخي يعقوب (إسرائيل) فيرفض المسلمون تسليمهم لهم ويقولون هم إخواننا لا نسلمهم وتكون الملحمة..

وهذا علم الله..

﴿**وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ**﴾ [الدخان : 33]

الآيات: أي الحجج والبراهين وخوارق العادات.. هكذا جاء تفسير الآية.

قال قتادة: نعمة بينة من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، والنعم التي أنعمها عليهم. وقال ابن زيد: ابتلاهم بالرخاء والشدة، وقرأ: { ونبلوكم بالشر والخير فتنة } [الأنبياء: 35] [2].

---

(1) مسلم في صحيحه ج4/ص2266 ح2944.

(2) تفسير البغوي - (ج 7 / ص 233).

ولذاك تأتي الآيات بذكر الكفار الظانين أنهم خارجين عن إحاطة الله بالعالمين، وكلها تؤكد الفارق بين أفعال الله وأفعال الدجال السحرية الخداعية.

إن الآيات التي تناقش موقف بني إسرائيل في سورة الدخان إنما تناقشها من منظور ثابت وهو أن بني إسرائيل هم أولى الناس بالكفر بالدجال؛ لأنهم هم الناجون من فرعون قرين الدجال بالتوافق والصفات وزعم الإلوهية والسحر

ولأنهم أعلم الناس بحقيقة أفعال الله.. من خلال آياته:

﴿**إِنَّ هَؤُلَاء لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الدخان : 34-36]

ولن يأتي الآباء؛ لأن الفاصل بين الغيب والشهادة لا يمكن تجاوزه، هذا حكم الله.

أما فعل الدجال بتمثيل الشياطين في صورة الآباء فلعب وكذب وخداع.

إن المناسبة بين إثبات الوعد الحق هنا في السورة هي التقابل مع وعد الدجال بأن يموت العبد يهودياً، أو نصرانياً.

ومن هنا يجعل الدجال الشياطين تتمثل للرجل في صورة أبيه وأجداده ويقولون له: يا بني لقد عاينَّا الأمر ووجدنا أن اليهودية حق أو النصرانية حق.

وكما كان الكتاب مبينا، كان الرسول مبيناً؛ ليتضاعف معنى الإبانة لأنها الصفة اللازمة لمواجهة الدجال ويزيد الرسول ﷺ الأمر بياناً، فكان كلام رسول الله ﷺ مع قتلى بدر تحقيقاً للإبانة، وذلك كما جاء في الآية:

﴿ **يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى** ﴾[الدخان: 16].

ثم تأتي الآيات بنموذج تاريخي لأصحاب هذا الظن الكافر الخاسر: ﴿**أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ [الدخان : 37]

وقوم تبع قوم مجرمين ظنوا أنهم خارجين عن إحاطة الله ولكن ذلك لا يكون وقد خلق السموات والأرض بالحق.

ولكن لماذا خص الله "تُبَّع" وقومه بالذكر في هذا السياق ؟

قوم تبع هم "حِمير"، ولعل هناك سببين لذلك، أحدهما يتعلق بقريش، والآخر يتعلق بالدجال.

أما الأول: فهو أن قوم تبع " حمير " هم العرق المقابل لقريش في الملك بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كَانَ هَذَا الأَمْرُ في حِمْيَرَ، فَنَزَعَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ، فَجَعَلَهُ في قُرَيْشٍ، وَسَيَعُودُ إِلَيْهِمْ»[1].

وأما الثاني: فهو أن قوم تُبَّع هم "حمير"، و"حمير" هم من سيخرج منهم آخر الدجالين الثلاثين الذين سيظهرون قبل ظهور المسيح الدجال، حيث خص رسول الله صلى الله عليه وسلم دجال حمير، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا, قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم، يَقُولُ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابين مِنْهُمْ: صَاحِبُ الْيَمَامَةِ، وَمِنْهُمْ: صَاحِبُ صَنْعَاءَ الْعَنْسِيُّ، وَمِنْهُمْ: صَاحِبُ حِمْيَرَ، وَمِنْهُمْ: الدَّجَّالُ، وَهُوَ أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِي، يَقُولُ: هُمْ قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ كَذَّابًا».

رَوَاهُ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي أُسَامَةَ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.

يقول الإمام البغوي في تفسيره: "وذكر عكرمة عن ابن عباس قالوا: كان تبع الآخر وهو أسعد أبو كرب بن مليك [جاء بكر] حين أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة، وقد كان حين مر بها خلف بين أظهرهم ابنًا له فقتل غيلة، فقدمها وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها، فجمع له هذا الحي من الأنصار حين سمعوا ذلك من أمره، فخرجوا لقتاله وكان الأنصار يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل، فأعجبه ذلك وقال: إن هؤلاء لكرام، إذ جاءه حبران اسمهما: كعب وأسد من أحبار بني قريظة، عالمان وكانا ابني عم، حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فإنها مهاجر نبي يخرج من هذا الحي من قريش اسمه أحمد، مولده مكة، وهذه دار هجرته ومنزلك الذي أنت به يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه، وفي عدوهم. قال تبع: من يقاتله وهو نبي؟ قالا: يسير إليه قومه فيقتلون ها

---

(1) أخرجه أحمد (91/4 ، رقم 16873) والطبرانى (234/4 ، رقم 4227) ، قال الهيثمى (193/5) : رجالهم ثقات.

هنا، فتناهى لقولهما عما كان يريد بالمدينة، ثم إنهما دعواه إلى دينهما فأجابهما واتبعهما على دينهما وأكرمهما وانصرف عن المدينة، وخرج بهما ونفر من اليهود عامدين إلى اليمن.

ومن هذه الرواية تتبين المناسبة بين قوم تبع والسياق من عدة جهات:

ــ أن بقايا بني إسرائيل كانوا هم السبب في ردِّ تُبَّع عن المدينة، وقالوا له: إنها مهاجر "أحمد" لن تسلط عليها،هم من سيخرج الدجال في ذريتهم ويحاول دخولها عنوة فتمنعه الملائكة، ويشير إليها ويقول: هذا قصر "أحمد"[1].

وهو ما يفسر قول الله في السورة." وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ " 32

– وأن البشارة التي ذكرها حبرا اليهود لــ "تُبَّع" تتعلق بغزوة "بدر" وهي "البطشة الكبرى" كما ذكر المفسرون

والتي قتل فيها زعماء قريش، والتي مازال ذكرها باقياً حتى الآن في سفر أشعياء

– وأن "تُبَّع" قد آمن برسول الله وأوصى بالإيمان به..

– وأن "تُبَّع" هو الذي حفظ المدينة لرسول الله..حتى يقال أن الدار التي دخلها رسول الله أول دخوله المدينة كان قد بناها تبع

وإذا كان علم الله في بني إسرائيل قد بلغ هذا الإحكام فما بالنا بخلق السماوات والأرض:

﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الدخان : 38–39].

يعني خلقناهما بقدر وإحكام..

"والواقع أن تدبر ما في خلق السماوات والأرض من دقة وحكمة وقصد ظاهر وتنسيق ملحوظ، وخلق كل شيء بمقدار لا يزيد ولا ينقص عن تحقيق الغاية من خلقه، وتحقيق تناسقه مع كل شيء وحوله، وظهور القصد في خلق كل شيء بالقدر

---

(1) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على فلق من أفلاق الحرة ونحن معه فقال نعمت الأرض المدينة إذا خرج الدجال على كل نقب من أنقابها ملك لا يدخلها.

والشكل الذي خلق به، وانتفاء المصادفة والبعث في أي جانب صغر أو كبر في تصميم هذه الخلائق الهائلة وما فيها من خلائق دقيقة لطيفة.

الواقع أن تدبر هذا كله يوقع في النفس أن لهذا الخلق غاية فلا عبث فيه؛ وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه [1]..

إن أهم مقتضيات التصور الإسلامي الصحيح لإدراك فتنة الدجال هو أن نعلم الفارق الأكبر بين أفعال الدجال وحقيقة الفعل الإلهي، وهو الفارق بين المخلوق والخالق.

ومن هنا سبق ذِكْر حقيقة الفعل الإلهي مع ذكر علامات الساعة كلها في ترتيب البحث ولكن سورة الدخان تناقش هذا الفارق بصورة مباشرة وكاملة.

فأمر الله محكم مكتوب في كتاب عنده.

وكل ما علمه الله يشاؤه.

وكل ما يشاؤه الله يقضيه.

وكل ما قضاه الله يقدره.

وكل ما يقدره الله يفعله.

لا يخرج شيء عن هذه الحدود..

أفعال الله كلها حق.. خلق السموات والأرض، الدنيا والآخرة، الجنة والنار، لا لعب لا عبث لا سدى ولا لهو ولا خداع.

﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الدخان : 40]

وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين وقوله عز و جل: { ميقاتهم أجمعين } أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم[2]

{ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ } يوم يفصل الرحمن بين العباد، { مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ } يوافي يوم القيامة الأولون والآخرون. [3].

---

(1) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب.

(1) تفسير ابن كثير – (ج **4** / ص **185**).

(2) الدر المنثور – (ج **9** / ص **128**).

{ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ } وهو يوم القيامة الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين وبين كل مختلفين { مِيقَاتُهُمْ } أي: الخلائق { أَجْمَعِينَ }[1].

ومن مجموع كلام المفسرين، يتبين لنا أن تسمية يوم القيامة بيوم الفصل يناسب محاولة معرفة الكفار لمصيرهم من آبائهم قبل يوم القيامة.. ومن هنا كانت كلمة {أَجْمَعِين} أي أنتم وآباؤكم..

فالقيامة فصل بين الحق والباطل بغير خلط ..وبين الغيب والشهادة بغير خرق.. وبين الآباء والأبناء بغير تداخل..

ولا يمكن قبل يوم الفصل معرفة المصائر..

وأول مقتضيات الفصل أن تكون القيامة ﴿**يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ **[الدخان: 41-42]**

ولذلك كان ختام السورة عرض للنار والجنة، نار الله وجنته سبحانه، وليست نار الدجال ولا جنته، ولكن النار والجنة في سورة الدخان جاء ذكرهما باعتبارهما جزاءً لمن اتبع الدجال ولمن كفر به.

فالذي اتبع الدجال.. اتبعه من أجل الطعام والشراب، ولذا كان في النار طعام وشراب:

﴿**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ**﴾ [الدخان : 43-45]

ولذكر شجرة الزقوم مناسبة مع الدجال، ومع غزوة بدر حيث ربط ابن عباس بين غزوة بدر وشجرة الزقوم والدجال.

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ جَاءَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَحَدَّثَهُمْ بِمَسِيرِهِ وَبِعَلَامَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَبِعِيرِهِمْ فَقَالَ نَاسٌ نحْنُ لا نُصَدِّقُ مُحَمَّدًا بِمَا يَقُولُ، فَارْتَدُّوا كُفَّارًا فَضَرَبَ اللَّهُ أَعْنَاقَهُمْ مَعَ أَبِي جَهْلٍ "في غزوة بدر"، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ:

---

(3) التحرير والتنوير – (ج 9 / ص 135).

يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ هَاتُوا تَمْرًا وَزُبْدًا فَتَزَقَّمُوا ، وَرَأَى الدَّجَّالَ فِي صُورَتِهِ رُؤْيَا عَيْنٍ لَيْسَ رُؤْيَا مَنَامٍ..) [1].

وكذلك تتناسب شجرة الزقوم مع الدجال في معنى الفتنة، حيث شبه الله طلعها برؤوس الشياطين، الذين سيكونون أتباعاً للدجال !

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان : 47-49]

وهذه الآيات نزلت أساساً في أبي جهل وما فعله الله به في غزوة بدر.

قال قتادة: نزلت في أبي جهل (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ) قال قتادة، قال أبو جهل: ما بين جبليها رجل أعزّ ولا أكرم مني، فقال الله عزّ وجلّ: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ).

وقال عكرمة: التقى النبي صلى الله عليه وسلم وأبو جهل فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله أمرني أن أقول لك: أولى لك فأولى) فقال: بأي شئ تهددني! والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذله ونزلت هذه الآية.

والحقيقة أن مالك –خازن النار– هو من سيوجه هذا القول إلى أبي جهل مباشرة، بدليل قول مقاتل: " ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم" قال مقاتل: يضرب مالك خازن النار ضربة على رأس أبي جهل بمقمع من حديد، فيتفتت رأسه عن دماغه، فيجري دماغه على جسده.

ولمالك –خازن النار– مناسبة مع الدجال: روى الإمام مسلم في صحيحه: عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ حَدَّثَنَا ابْنُ عَمِّ نَبِيِّكُمْ ﷺ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَام رَجُلٌ آدَمُ طُوَالٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ سَبِطَ الرَّأْسِ وَأُرِيَ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالدَّجَّالَ فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللَّهُ إِيَّاهُ».

---

(1) أخرجه أحمد (374/1) وقال ابن كثير: رواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد عن هلال – وهو ابن خباب – به وهو إسناد صحيح، وحسنه الألباني.

ودليل اختصاص العلاقة بين الدجال ومالك خازن النار هو أن الرسول كان يقول رأيت موسى ورأيت عيسى ولكنه جمع في الرؤية بين مالك والدجال فقال: " وَأُرِيَ" مالكًا خازن جهنم والدجال " ولم يفصل بينهما بكلمة "ورأيت".

ليكون الدجال صاحب " النار الوهمية " أمام مالك خازن جهنم "النار الحقيقية".

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان : 50]

إن الذنب المذكور للكافرين هو الامتراء والشك، وقد تكرر ذكر هذا الذنب في قول الله: **﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾** [الدخان: 9]،

وقول الله: **﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾** [الدخان: 7] لأن اليقين هو المواجهة الصحيحة الكاملة للدجال.

وكما كان وصف جهنم مناسبا للدجال..كذلك كان وصف الجنة مناسبا للمتقين..

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: 51-52]

فكان أول صفاتها.. الأمان، وهي الصفة المقابلة للدجال بأخطر صفاته وهي الرعب كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بَلَدٌ إِلَّا يَدْخُلُهُ رُعْبُ الْمَسِيحِ إِلَّا الْمَدِينَةَ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهَا يَوْمَئِذٍ مَلَكَانِ يَذُبَّانِ عَنْهَا رُعْبَ الْمَسِيحِ»[1].

«وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ –أي عيسى ابن مريم– الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ الْكَذَّابَ وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْإِبِلُ مَعَ الْأُسْدِ جَمِيعًا وَالنُّمُورُ مَعَ الْبَقَرِ وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ.. »[2].

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الدخان: 53]

وتأتي ثياب السندس والإستبرق للمؤمنين في الآخرة عوضاً عمَّا زهدوا فيه من فتنة الدنيا التي تمثلت في ثياب أتباع الدجال، حيث قال رسول الله ﷺ: «يتبع الدجال سبعون ألفا من يهود أصبهان، عليهم الطيالسة»[3]، «يخرج حين يخرج على مقدمته سبعون ألفا، عليهم السيجان» [4].

---

(1) رواه الإمام البخاري (1746) والإمام أحمد (19545، 19565، 19574) واللفظ لأحمد.

(2) رواه الإمام أحمد (9259).

(3) المعجم الأوسط للطبراني – (ج 11 / ص 80).

(4) أخرجه أحمد (4/216-217) والحاكم (4/478-479).

والطيالسة: جمع طيلسان، وهو ثوب يلبس على الكتف يحيط بالبدن ينسج للبس خال من التفصيل والخياطة، ومن الطيلسان ثياب السدوس:

وداوَيْتُها حتَّى شَتَتْ حَبَشِيَّةً... كأَنَّ عليها سُنْدُساً وسُدوسا

ولهذا جعلها كأَنها جُلِّلَتْ سُدُوساً وهو الطَّيْلَسان الأَخضر، والسدوس هو السندس[1].

والسّيجان: جمع ساجٍ، وهو نوع من الثياب منه الطَّيْلَسَان الأَخْضَرُ والأسود[2].

وجاء في لسان العرب وتاج العروس أن السُّنْدُسِ رَقِيقُ الدِّيباجِ –الحرير– ورَفِيعهُ والإِسْتَبْرَقِ غَلِيظُ الدِّيباج[3].

﴿**كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ**﴾ [الدخان: 54]

والحور: جمع الحوراء، وهي البيضاء.

والعِين: جمع عيناء، وهي واسعة العين، وشمل الحور العين النساء الّلائي كُنَّ أزواجهن في الدنيا، ونساءً يخلقهن الله لأجل الجنة قال تعالى: { إنا أنشأناهن إنشاءً } [الواقعة: 35] وقال تعالى: { هم وأزواجهم في ظلالٍ } [يس: 56].

ويأتي الجزاء بالحور العين عوضاً عن فتنة النساء التي يستخدمها الدجال، كما جاء في الحديث: «أَكْثَرُ تَبَعِهِ الْيَهُودُ وَالنِّسَاءُ»[4].

ومن هنا كانت الحور العين جزاء من يقرأ سورة الدخان ليلة الجمعة، كما روى الدارمي في سننه: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُبَارَكِ حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِى رَافِعٍ قَالَ : «مَنْ قَرَأَ الدُّخَانَ فِى لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ أَصْبَحَ مَغْفُوراً لَهُ ، وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ»[5].

---

(1) لسان العرب – (ج 6 / ص 107).

(2) الصحاح في اللغة – (ج 1 / ص 334).

(3) لسان العرب – (ج 10 / ص 5)، تاج العروس (ج 1 / ص 3974).

(4) سبق تخريجه.

(5) سنن الدارمي – (10 / 317).

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: 55]

و{ آمنين } حال من ضمير { يدعون }. والمراد هنا أمن خاص غير الذي في قوله: { في مقامٍ أمينٍ } أو آمنين من نفاد ذلك وانقطاعه، وتركيز السورة على صفة الأمان أمر يتناسب مع فتنة الدجال كما أسلفنا.

والفاكهة هي الطعام الذي يدل على الشبع، وهو ما يقابل الجوع في فتنة الدجال، وبذلك تتناسب الآية بكل ما فيها مع الدجال.

وقوله: { يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ } أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا [1].

وتأكيدا للأمان تكون الطمأنة

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: 56-57]

ويأتي الأمان من الموت في مقابل فتنة الإحياء والإماتة التي يأتي بها الدجال.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: 58]

لسانك العربي.. الذي أوضح سورة كاملة من خلال معني كلمة واحدة هي "الدخان"، وللسان العربي مع الدجال شأن عظيم لأن العرب أشد الناس على الدجال، وأشدهم ولد إسماعيل، وأهمهم بنو تميم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: «مَا زِلْتُ أُحِبُّ بَنِي تَمِيمٍ مُنْذُ ثَلَاثٍ سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِيهِمْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ هُمْ أَشَدُّ أُمَّتِي عَلَى الدَّجَّالِ قَالَ وَجَاءَتْ صَدَقَاتُهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ صَدَقَاتُ قَوْمِنَا وَكَانَتْ سَبِيَّةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَ أَعْتِقِيهَا فَإِنَّهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ» [2].

وبنو تميم الذين هم أشد الأمة على الدجال هم أنفسهم أفصح العرب لسانا: حدثنا الفضل بن دكين عن أبي خلدة عن أبي العالية قال : «قرأ على النبي ﷺ من كل جنس رجل ، فاختلفوا في اللغة فرضي قراءتهم كلهم ، فكان بنو تميم أعرب القوم»[3].

---

(1) تفسير ابن كثير - (ج 7 / ص 261).

(2) رواه البخاري (2357).

(3) مصنف ابن أبي شيبة - (ج 7 / ص 562).

حدثنا أبو بكر ، نا الفضل بن دكين ، عن أبي خلدة ، عن أبي العالية قال : «قرأ على النبي ﷺ من كل جنس رجل ، فاختلفوا في اللغة فرضي قراءتهم كلهم، وكان بنو تميم أعرب القوم»[1].

ومن هنا تتبين مناسبة الآية: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾، وخصوصا إذا علمنا أن الدجال معه كل الألسنة وأن اللسان أخطر عناصر الفتنة، وأن اللسان العربي –الذي هو خير الألسنة وأقواها– هو القادر على الدجال بكل ألسنته.

﴿**فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ**﴾ [الدخان: 59]

وفيها حقيقة هامة هي طلاقة التقدير الإلهي في الصراع بين الخير والشر, والحق والباطل، وأن جميع أطراف الصراع لا يخرجون عن حد الارتقاب لما سيكون من أقدار الله.

ومن هنا كانت أقوال جمهور المفسرين: { فَارْتَقِبْ } أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر { إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ } ما يحل بهم من العذاب وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة [2].

وأخيرا نختم بهذه الفقرة القيمة للطاهر بين عاشور رحمه الله:

"وفي هذه الخاتمة ردّ العجز على الصدر إذ كان صدر السورة فيه ذكر إنزال الكتاب المبين وأنه رحمة من الله بواسطة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وكان في صدرها الإنذار بارتقاب يوم تأتي السماء بدخان مبين وذكر البطشة الكبرى . فكانت خاتمة هذه السورة خاتمة عزيزة المنال اشتملت على حسن براعة المقطع وبديع الإيجاز" [3].

---

(1) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم – (ج 3 / ص 356).

(2) تفسير السعدي – (ج 1 / ص 774).

(3) التحرير والتنوير – (ج 13 / ص 298).